الفصل الرابع عشر

مرضه ووفاته

كان الفقيد يشكو وهو في مصر من مرض الكبد الذي اعتراه وهو بعد سن الشباب، وكان يذهب الفينة بعد الفينة إلى (فيشى) للاستشفاء منه، ولما هاجر من مصر إلى أوربا، تأثرت حالته الصحية بسبب الغربة، وتنقله في البلاد الأوربية، وإجهاد نفسه في العمل المتواصل، من الكتابة في الصحف والمجلات، والخطابة في المحافل والمؤتمرات، ومقابلاته للمصريين والشرقيين والأوربيين، ومراسلاته لهم ولأصدقائه وتلاميذه في مصر، ورحلاته المستمرة لرفع صوت مصر، والإعراب عن مطالبها وآمالها، فأثرت فيه هذه الجهود المضنية، وزاد في تأثيرها جو أوربا البارد الذي لم يألفه في الشتاء، فكانت سنوات المنفى سببًا لاعتلال صحته.

جاء في مذكراته بتاريخ (٣١ يناير سنة ١٩١٤م): «قضيت هذا الشهر بمدينة جنيف، وكان البرد شديدًا، ولم يزل كذلك، فلم تظهر فيه الشمس إلا مرتين، ونزل الثلج في أغلب أيامه، وبالاختصار كان شهرًا محزنًا كئيبًا، ولو ساعدتني حالتي المالية لسافرت إلى جنوب فرنسا، أو إلى الجزائر المغرب، لأقضي الشتاء هناك؛ ولكن الأمل في نيل ذلك ضعيف».

وفي (يونية سنة ١٩١٦م) قصد مدينة تارسب Tarasp بسويسرا للاستشفاء بحماماتها من مرض الكبد الذي عاوده في تلك السنة.

وفي (أوائل يولية) قصد إلى حمامات شولس Schuls بسويسرا أيضًا، للاستشفاء من هذا الداء، وفي سبتمبر قصد إلى حمامات راين فلدن Rheinfelden على شاطئ الرين بإشارة الأطباء؛ ولكن المرض لم يفارقه.

وفي سنة (١٩١٧م) أشار عليه الأطباء بالعلاج في ويزبادن Wiesbaden، وقصدها في أغسطس من تلك السنة، فلم يفده العلاج بها شيئًا.

وفي (مارس سنة ١٩١٨م) أحس بمرض الاستسقاء وهو في برلين، فدخل أحد المستشفيات الخصوصية يوم (٢٢ مارس)، لعمل عملية القيلة المائية، ومكث به إلى يوم الأربعاء (٣ إبريل) إذ شفي منه شفاء مؤقتًا.

وفي يوم (١٩ يولية سنة ١٩١٨م) عاد إلى سويسرا حيث قصد حمامات (تارسب) التي استشفى بها سنة (١٩١٦م)، ثم قصد سان مورتس Saint Moritz حيث تحسنت صحته نوعًا (انظر صورته بهذه الصفحة)، وذهب منها إلى ألمانيا في سبتمبر سنة (١٩١٨م)، ثم رجع إلى سويسرا في أواخر نوفمبر من تلك السنة.

صورة الفقيد فى سان مورتس

يوم ٢١ اغسطس سنة ١٩١٨ حيث تحسنت صحته نوعا

وفي سنة (١٩١٩م) اعتلت صحته بسبب اشتداد مرض الكبد ورشح الماء في تجويف البطن، مما استدعى (بزله) من وقت إلى آخر، فقصد في (شهر إبريل سنة ١٩١٩م) مصحة ليمان Leman بسويسرا، على مقربة من بحيرة ليمان (بحيرة جنيف)، وأقام بها نحو ستة أسابيع، شعر في بدايتها بتحسن يسير، ثم زال هذا التحسن وساءت حالته، فنصحه الدكتور شرونف Schrumpf الذي كان يعالجه مدة

إقامته في برلين بالتوجه إلى حمامات (باسوج) Passug بسويسرا، فسافر إليها في (١٧ يونية سنة ١٩١٩م)، وقضى ليلة في زوريخ للاستراحة بها، ثم وصل إلى هذه الحمامات في (١٨) منه، ففحص طبيب الحمامات عن حالته، ورسم له العلاج اللازم من الاستحمام، ولكن ماء الرشح زاد بسرعة، فكتب إلى الدكتور شرونف يستنصحه، فأرسل إليه تلغرافًا يطالب إليه أن يسافر من فوره إلى مستشفى سمادن Samaden بجوار سان مورتس بسويسرا؛ لعمل البزل به، فسافر من باسوج في (٢٢) منه، ووصل إلى مستشفى سمادن، وبعد ظهر اليوم التالي حضر الدكتور شرونف بنفسه، واشترك مع طبيب المستشفى في العلاج، فأخرجا ماء الرشح الذي بلغ مقداره سعة لترات، فاستراح على الفور، وأقام بالمستشفى ثمانية أيام، ثم سافر (يوم ٢٩ يونية) إلى سان مورتس؛ لأن جوها يعين على النقه من المرض، وكان طبيب المستشفى يتوقع ضرورة إعادة البزل بعد عشرة أيام، ولكنه قضى بسان مورتس شهرًا كاملًا، دون أن يشعر بحاجة إلى إعادة البزل، وإذ شعر بالراحة والقدرة على العمل، سافر يوم (٢٩ يولية) إلى مدينة (لوسرن) فقصده لحضور المؤتمر الدولي الاشتراكي الذي انعقد بها (وقد تقدم الكلام عنه ص٤٠٢)، فقصده ليرفع فيه صوت مصر، وبعد أن حضر المؤتمر عاد إلى جنيف التي كان يتخذها مقرًّا له، وفيه زاد ماء الرشح، فاستحضر طبيبًا بزله (يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٩١٩م)، ثم (يوم ٣ سبتمبر). وكان الدكتور عبد العزيز عمران يلازمه في أوربا منذ سنة (١٩١٣م)، فنصحه بالدخول في مستشفى جنيف؛ لكي يتبع فيه نظامًا علاجيًّا يخفف وطأة المرض، فعمل الفقيد بنصيحته، ومكث فيه مدة.

حدثني الدكتور عبد العزيز عمران أنه وإخوانه المصريين أبرقوا إلى الوفد المصري بباريس، بما وصلت إليه حالة المريض العظيم، فلم يتلقوا أي رد!!

وكان المرحوم حسين بك شرين -وهو من خاصة أنصاره ومحبيه- يزوره في مرضه، فلما رأى أن حالته لم تتحسن في مستشفى جنيف، أشار عليه بالانتقال إلى

ترتييه Territet حيث كان يقيم حسين شرين بك ليدخل مصحة بها تسمى مصحة كولوني Clynigue de Cologne يديرها الدكتور شسكس Shessex. فغادر المترجم جنيف يوم (الإثنين ٨ سبتمبر سنة ١٩١٩م) قاصدًا تريتيه، ودخل المصحة، وبزل الدكتور شسكس ماء الرشح، فأخرج من بطنه سبعة عشر لترًا، ثم رسم له العلاج والطعام المناسبين؛ فقلَّ ماء الرشح، وتحسنت حالته تحسنًا نسبيًّا، وظل كذلك إلى يوم (٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٩م)، ثم ظهر ماء الرشح ثانية، فنصحه أطباء المصحة بالتوجه إلى برلين، لإجراء عملية جراحية في الوريد الكبدي، على يد طبيب أخصائي، وهي عملية قيل إنها تشفي الترشيح المائي، وكان كل من الدكتور عبد العزيز عمران، وإسماعيل بك لبيب، يتناوبان ملازمته بالمصحة، فعرض عليهما الأمر فوافقاه على السفر إلى برلين، فغادر (تريتيه) وقصد إلى ألمانيا، ونزل بفردريكسهافن على الحدود الألمانية، وهناك عمل له البزل لإخراج ماء الرشح لظهوره بسرعة، وبعد أن استراح قليلًا واصل السفر إلى برلين، ولازمه هناك الدكتور عبد العزيز عمران وإسماعيل بك لبيب ودخل مصحة الدكتور ستوكمان بالدار رقم ٩٧ من شارع مارتن؛ استعدادًا للعملية الجراحية التي أشير عليه بها؛ ولكن ماء الرشح زاد زيادة كان يستحيل معها إجراء العملية الجراحية، فبزل له الماء مرتين في هذه المصحة، وانحطت قواه على أثر البزل الثاني.

الوفاة (١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩م)

حافظ الزعيم في أثناء مرضه الأخير على شجاعته وصبره، وتجلت وطنيته في ساعة الخطر، كما كانت تتجلى في ساعات الجهاد العصيبة التي كان يواجهها في كل أدوار حياته.

فلما لمح شبح الموت يقترب منه في الأيام الأخيرة، قال لمن حوله: «لست أخاف الموت؛ لأن الموت حق لا بد منه، ولكن كل ما كنت أتمناه أن أرى مصر متمتعة بتمام استقلالها».

ولما أيقن أنه سوف يفارق الحياة دون أن يرى استقلال بلاده، استسلم للموت، وجمع إخوانه الموجودين حوله، وأوصاهم بالاتحاد، وأن يبثوا بين أبناء الوطن هذه الروح السامية التي تحفظ كيانهم، وتقرب استقلالهم، وقال في النهاية: «إني أنا وأولادي وكل عزيز لدي فداء لمصر، لقد قضيت بعيدًا عن مصر سبع سنوت، فإذا مت فضعوني في صندوق، واحفظوني في مكان أمين، حتى تتاح الفرصة لنقل جثتي إلى وطني العزيز، الذي أفارقه وكنت أود أن أراه».

ثم دخل في دور الغيبوبة، وأسلم الروح في منتصف الساعة الحادية عشرة من مساء يوم السبت ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩م (٢٢ صفر سنة ١٣٣٨هـ).

تشييع الجنازة في برلين

أبلغ الدكتور عبد العزيز عمران النبأ الفاجع إلى إخوانه المصريين ببرلين، فاجتمعوا يعروهم الحزن، ويحز في نفوسهم الألم، وأخذ يعزي بعضهم بعضًا، وما لبث الخبر أن استفاض في أنحاء العاصمة الألمانية، ونشرت الصحف فيها نبأ وفاة الفقيد، ورثاه كتَّابها ومحرروها، واهتزت الأسلاك البرقية حاملة نعيه إلى مصر وسويسرا والعواصم الأوربية، وقرر المصريون الاحتفال بتشييع جنازة الزعيم ببرلين احتفالًا يليق بمقامه ومنزلته، ووضع جثمانه بعد تحنيطه في تابوت من الحديد؛ لكي يمكن نقله إلى مصر عند سنوح الفرصة؛ عملًا بوصيته.

وفي اليوم التالي شيعت الجنازة من المصحة في احتفال مهيب، سار فيه المصريون، وعدد كبير من الشرقيين والألمان، وكان اليوم ممطرًا، اكفهرت فيه السماء، وهبت العواصف، فكان ذلك مشاركة من الطبيعة في الحزن على الزعيم الراحل.

خطبة الشيخ عبد العزيز جاويش

وقبل تحرك الجنازة، ألقى الشيخ عبد العزيز جاويش أمام جثمان الفقيد كلمة مؤثرة في وداعه، قال:

«أيها السادة: أمام جثة هامدة، وميت لا يعي، نحن واقفون؟ كلا!.. ثم كلا، إنما نحن وقوف أمام صفحات من تاريخ الجهاد الأكبر في سبيل الحرية البشرية، في سبيل الذود عن الحقوق الطبيعية للشعوب الإنسانية، في سبيل مصارعة الأمم القوية ذوات المطامع الأشعبية.

نحن وقوف أمام هذا الراحل الكبير، الذي كانت حياته مثالًا كاملًا للمتشبهين، وقدوة صالحة للعاملين، فها هي تلك صفحاتها الناصعة، ترينا كيف جمع فقيدنا العزيز، إلى صلابة العزم، جهادًا لا يوهنه الملل، ولا يوهيه الكلال، كما ضم إلى الصراحة البالغة في كتابته وكلامه، إقدامًا يستهزئ بالغوائل، ويسخر من كارثات النوازل، لقد رأيناه رحمه الله يوم ساقه الإنكليز إلى السجن بمصر، فما كان إذ ذاك أقل ابتسامًا منه يوم فارقه بعد ستة أشهر كاملة قضاها في غيابته وظلماته.

ضيق الإنجليز المذاهب على فقيدنا، وأخذوا الأبواب والمسالك على قلمه ولسانه، فلم يربدا من مفارقة وطنه وأولاده وعشيرته، إذ خرج يلتمس فضاء يسع صيحاته التي ضاق عنها فضاء بلاده، ووقرت دونها آذان أعدائه.

جاهد رئيس الحزب الوطني في سبيل تحرير بلاده، وكان يرجو أن لا تعاجله منيته، قبل أن يراها خالية من ظل الجبابرة المغتصبين، فكنا نخشى وقد سارعت إليه المنون أن يحزنه حرمانه من نيل أمنيته، واكتحال عيونه بشمس الاستقلال والحرية، مشرقة على ربوع وطنه العزيز؛ ولكننا رأيناه رحمه الله قبيل وفاته قرير العين، مشروح الصدر؛ إذ أبصر كيف تشيد أمته النجيبة، على ما أقامه هو وسلفه الصالح

مصطفى كامل باشا من الدعائم المتينة، صرح الحرية والاستقلال، ذلك الصرح الذي سيعانق يومًا ما الأهرام، ويدوم ما تعاقب الجديدان.

أبصر الرئيس كيف تبنى أمته الكريمة حياتها الحرة المستقلة، بما يتساقط من رءوس أبنائها ويتمزق من أفلاذ أكبادها، وبما يتدفق من دماء شهدائها، أبصر فريد كيف أصبحت قواعد الحزب الوطني الذي يرأسه عقيدة كل فرد من أفراد الأمة، وغاية كل مجاهد من رجالها، أبصر فريد كيف اتحدت كلمة الشعب وتعاقدت خناصره؛ إذ ألف الله بين قلوب أحزابه وطوائفه، فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا، وكانوا على شفا حفرة من النار، فأنقذهم الله منها، أبصر فريد كيف نافس في سبيل الوطن المفدى أطفال الأمة الشيوخ، ونساؤها الرجال، ومسيحيوها المسلمين، وكيف تعاشق الهلال والصليب، وائتلف القرآن والإنجيل، وتعانق الشيخ والقسيس.

أبصر فريد بعد أن سدت السبل أمامه وأمام اللجنة الإدارية للحزب في أوربا، فلم يستطيعوا شهود الملاحم الوطنية، أبصر كيف ترسل الأمة الوفود، وتريق الدماء في سبيل تأييدها ونصرتها، أبصر فريد جميع ذلك، فلا عجب إذا وجدناه يقابل أمر الله الذي لا مرد له بذلك القلب الممتلئ بالآمال العظام والثقة البالغة من أن سيطهر وطننا العزيز من أعدائه، ويحرر رقاب أمتنا العزيزة من أطواق الاستعباد.

وإذا كانت حياة الرجال أيها السادة خيرًا للأمم التي يخدمونها فكم منهم من أفاد بمماته بمقدار ما أفاد بحياته، ليس فريد بتلك الجثة الهامدة، والنسمة الجامدة؛ وإنما هو تلك النفس الأبية، والقدوة الصالحة، والذكرى الطيبة التي سيجددها بلى الأيام، ويوالي نشرها انطواء العصور والأجيال، فطوبى لمن سنَّ سُنَّة حسنة، وطوبى ثم طوبى لمن اقتدى بالعاملين.

والآن نستودعك الله أيها الرئيس المحبوب، فنمْ مَغمورًا برحمة الله وإحسانه، مزودًا من أمتك بالدعوات الصالحة، والذكرى العاطرة، والحب الدائم، والسلام عليك ورحمة الله».

ثم سارت الجنازة إلى مقبرة المسلمين ببرلين، وهناك حفظ التابوت بالكنيسة بالقرب من المقبرة؛ لكي ينقل إلى مصر، ووضع بجوار جثمان الأمير محمد عبد القادر، نجل الخديوي عباس، وألقى البارون أوبنهايم كلمة بالألمانية في رثاء الفقيد، ونثرت على النعش الزهور والرياحين المقدمة من وفود المصريين والشرقيين والأوربيين.

وبقي التابوت وديعة لدى حارس الكنيسة، على أن يسلم للدكتور عبد العزيز عمران أو إسماعيل بك لبيب إلى أن نقل إلى مصر في (يونيو سنة ١٩٢٠م)[١].

نعيه في مصر

وصل نعي الزعيم إلى مصر بطريق البرق (مساء يوم ١٧ نوفمبر)، ونشرت الصحف النبأ الأليم؛ فعمَّ الحزن أرجاء البلاد، ونبه نعيه ضمير الشعب إلى تقدير الزعيم الراحل، بعد أن كاد ينسى فضله، ويغمر ذكره بين أمواج الحوادث، وأخذت الصحف تؤبنه بما يستحقه مقامه في الحركة الوطنية، وإنا ناشرون هنا نموذجًا من رثاء الصحافة العربية، ثم الأوربية.

قالت (الأهرام) في نعيه[٢]:

«مات محمد فريد وكفى باسمه وصفًا لحياته -غريبًا عن وطنه، حبًّا بذلك الوطن، فأحياه موته، وهو غريب مجاهد، في قلب كل مصري وكل محب لمصر،

(١) أخذت هذه البيانات عن الدكتور عبد العزيز عمران الذي لازم الفقيد حتى وفاته، وهو من خاصة تلاميذه الأوفياء (رحمه الله).

(٢) عدد (١٩ نوفمبر سنة ١٩١٩م).

وخلده جهاده لإنقاذ هذا الوطن في التاريخ، إلى جانب كل رجل عظيم ووطني كبير في كل أمة من الأمم.

استمات في حب الاستقلال، فمات وحياة أمته في عنفوان الشباب، وخفت صوته وأصوات أمته الهاتفة اليوم هتافه ترتفع إلى الجوزاء، وتتردد في لابات كل قارة ومصر، وتقع من آذانه وهو ذاهب إلى ربه قرير العين بما قدمت يداه، مثلوج الفؤاد بما رأت عيناه، فإذا أرسلت اليوم «الأهرام» دمعة على قبره، فإنما هي ترسل هذه الدمعة الحري، ذاكرة نهضته في صباه من بين أقرانه، ليمدها بآرائه وأفكاره، يوم كانت الكتابة في الصحف تعد على أمثاله من أبناء الباشوات والعظماء، وعارًا يماس الجريمة؛ ولكن فريدًا رحمه الله حطم تلك القيود، ونزع إلى الحرية وخدمة الوطن، بالقول والفعل، فلم تمنعه الوظيفة عن الاهتمام بقضية التلغرافات التي أقيمت على المؤيد -وهي تلغرافات السردار كتشنر عن الحملة المصرية لفتح السودان، توصل إليها «المؤيد» فأذاعها وحوكم من أجل إذاعتها فبرئ، فكانت تلك القضية خاتمة حياته بالوظيفة، وفاتحة حياته في الخدمة الوطنية، فإذا تضاربت الآراء في أمر من الأمور فإنه لا يختلف اثنان في إخلاص محمد فريد لوطنه، وتفانيه في محبته، حتى ذهب اليوم إلى ربه بجبهة ناضرة، تبكيه مصر لأنها فقدت ابنًا من أصدق أبنائها إخلاصًا، وأكثرهم جهادًا، وتتعزى عن فقده بناشئة كريمة ناهضة، كلها فريد، وكلها عامل عمله؛ بل كلها متم ذلك العمل الجليل الذي يتطلب شهداءه، ويريد ضحاياه، ككل الأعمال الجليلة، فإذا ما قلنا اليوم، والحزن ملء الفؤاد: «هذا رجل مات»، نقول والصدر منشرح: «ولكن الرجال فينا غير قليل»، وموته في ديار الغربة في سبيل الخدمة لأعظم برهان يقام في هذا الأوان على الذين تكافحهم مصر ويكافحونها، وتجالدهم السياسة ويجالدونها مجالدة الأبطال، لا ينظرون إلى الوراء ليقفوا على جثث الأبطال نادبين؛ بل ينظرون إلى الأمام، وأعينهم قيد أكاليل النصر وروح شهدائهم معهم، لا ترضى عنهم أن تذهب عبثًا، وتناجيهم ليرضوها، ويبرروا مفاجعها بإبلاغ مصر أمانيها».

وقالت (الإجبشيان ميل):

«انتخب فريد بك رئيسًا للحزب الوطني سنة (١٩٠٨م) عقب وفاة مصطفى كامل باشا مؤسسه ورئيسه الأول، ومنذ اليوم الذي انتخب فيه وقف كفاءته وثروته ووقته على الغرض الذي ثابر عليه، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إنه لو لم يترك خدمة الحكومة عملًا بمبادئه الوطنية لوصل إلى منصب الوزارة، وفي سنة (١٩١١م) حكمت عليه محكمة الجنايات بالسجن في قضية كتاب (وطنيتي) المشهورة، ولم تنته مدة سجنه حتى سافر إلى أوربا ولم يعد منها بعد ذلك.

ولا حاجة إلى القول بأن فريدًا كان مخلصًا في مبدئه الذي لم يتوان عن العمل على تحقيقه في العشر السنوات الأخيرة، وكان فوق ذلك أول زعيم وطني بذل ماله في سبيل مبدئه المحبوب؛ فكان بذلك مثلًا نادرًا في الشرق -وفي مصر على الخصوص- لمن يفدي مستقبل وطنه بكل ما يملك.

قال له قائل في الليلة السابقة لمثوله أمام محكمة الجنايات: ألا تدري أنك على أبواب السجن؟! فما كان جوابه إلا أن ابتسم ابتسامة معناها أنه لا يبالي عذاب السجن في سبيل مبادئه، أو بعبارة أخرى أنه لا يضن بأداء هذا الثمن أيضًا من أجلها.

ولسنا نحن من رأى الزعيم الوطني الراحل في مذهبه السياسي، ولكننا لا نتمالك أن نبدي إعجابنا بخلقه وصدق شعوره بالوطنية، ولا سيما أنه حين بذل كل ما يملك، لم يكن ينتظر أي مكافأة من أبناء وطنه».

كلمتي في رثائه

وقد شق عليَّ نعي المترجم، وتملكني حزن شديد؛ إذ فقدت فيه إمامي في الوطنية، وشعرت بفداحة المصاب، وعظم الخسارة التي حلت بالبلاد بوفاته، في وقت هي أحوج ما تكون إلى إخلاصه، ووطنيته المنزهة عن الأهواء، البريئة من

المطامع الشخصية، وكتبت أرثيه في مقالة نشرت في جريدة (مصر) بتاريخ ١٩ نوفمبر، قلت تحت عنوان (إلى الفقيد العظيم والرئيس الراحل الكريم):

«اليوم تلبس الوطنية المصرية ثوب الحداد حزنًا على أبر أبنائها وأكبر خدامها، من بذل في سبيلها حياته وصحته وماله، ووقف على خدمتها قلمه ولسانه، وبيانه وجنانه، مات فريد فانطفأ سراج وهاج طالما قرأ المصريون على ضوئه الساطع آيات الإخلاص، ودروس الشجاعة والثبات، انطفأت تلك الشعلة الوطنية الفياضة بنور المبادئ العالية، ذهبت تلك النفس الكبيرة التي كانت تبعث في القلوب روح المثابرة والإقدام، روح الأمل والإيمان، روح التضحية الكبرى، روح التفاني في خدمة الأوطان.

فإليك أيها الراحل الكريم، ترسل الأمة المصرية تحيات الوداع، ممزوجة بالدموع والعبرات، وعليك تبكي الوطنية المصرية، ومن أجلك يخفق قلب مصر حزنًا وألمًا!

ألا في ذمة الله من تلقيت عنه مبادئ الوطنية الأولى، من كنت أراه في السراء والضراء، في السفر والحضر، تحت سماء الوطن أو المنفى، رافعًا لواء الوطنية، حاملًا في يمينه مصباح الأمل، يسير به في كل واد، وتحت كل سماء، ينظر به إلى الدنيا، فتصغر في عينه المصائب، وتتضاءل المتاعب؛ في ذمة الله من كان يغالب الدهر ويحتمل الشدائد والمصائب، وقلبه مملوء قوة ويقينًا، في ذمة الله من جعل حياته كتابًا مقدسًا تقرأ فيه الأمة آيات الجهاد في سبيل الوطن.

أيها الفقيد العظيم! في سبيل الوطن تعبت وشقيت، في سبيله تعذبت وتغربت، في سبيله احتملت غضاضة السجون وآلامها، في سبيله احتملت الشدائد، وفارقت الأهل والأبناء، والإخوان والأصدقاء، في سبيله أخذت تجوب الأقطار، وتتنقل في بلاد الغربة، فاحتملت هناك ما احتملت من تقلبات الأيام، ومتاعب الحياة، والحنين إلى الوطن العزيز، كل ذلك وأنت البطل العظيم الذي يرى كل شدة وكل تضحية في سبيل الوطن واجبًا مقدسًا.

مرت عليك ثمانية أعوام وأنت بعيد عن مصر بجسمك؛ ولكنك كنت قريبًا منها بقلبك، فما كان يخفق إلا لها، وما كان يهتف إلا باسمها، وما تعبت وتعذبت إلا في سبيل الدفاع عن حقوقها، وأخيرًا لم تستطع قواك البدنية أن تلاحق نفسك العظيمة، فقعد بك المرض، وأعيا الداء الأطباء؛ ومع ذلك كنت وأنت في شدة المرض وآلامه تنادي باسم مصر، وتهتف لها، كنت تفكر وتكتب، وتعمل وتجاهد، إلى أن قضى الله أن تنتقل إلى الرفيق الأعلى، ففي ذمة الله أيها الفقيد العظيم! إن حياتك مثل أعلى للمجاهدين في سبيل أوطانهم، ففي شخصك الكريم تتمثل المثابرة، والعقيدة الوطنية الراسخة، وفي تاريخك تتعلم الأمة فضيلة الإقدام، وتقرأ سطور الإخلاص وإنكار الذات.

فاليوم تبكيك أمة عرفت لك فضلك الكبير وجهادك العظيم، تبكيك وأنت بعيد عنها، وتذكر وهي حزينة ذلك الصوت العالي الذي كان يرتفع من وراء البحار، مدافعًا عن حقوقها. فيا أسفى على تلك الحياة الكبيرة التي انقضت قبل الأوان، وواهًا لتلك الشعلة الوطنية التي أطفأها الموتُ وهي تضيء الأرجاء، وترسل إلى أعماق القلوب أشعة الأمل فتملؤها ثباتًا وإقدامًا!

إيه يا ربوع «صاري يار» المطلة على البوسفور، أيتها الربوع التي قضى بها الفقيد الكبير شطرًا من حياته في منفاه، ويا رُبى سويسرا ومدائنها التي قضى بها معظم أيام جهاده، ويا أندية جنيف وبرن وباريس ولندن والأستانة وبرلين واستوكهلم! شاركي مصر في حدادها، واذكري ذلك الراحل الكريم، فلكم سمعت صوته على أعواد المنابر، مناديًا بمبادئ الحق والعدل، مدافعًا عن مصر، يطلب لها وللشعوب الصغيرة الحرية والحياة.

إن حياتك أيها الفقيد العظيم حياة خالدة، ستبقى نبراسًا لأبناء مصر جميعًا.

فسلام عليك يوم جاهدت، ويم تغربت، وسلام عليك يوم انتقلت إلى جوار ربك الكريم، سلام عليك كل يوم ترفرف فيه ذكراك على مصر المجاهدة في سبيل

حريتها، سلام عليك يوم يكلل جهادها بالفوز، وتخفق فوق ربوعها راية الاستقلال».

١٩ نوفمبر سنة ١٩١٩م

عبد الرحمن الرافعي

بيان الحزب الوطني في نعيه

ونعاه الحزب الوطني في بيان للأستاذ محمد زكي علي بك، سكرتير الحزب قال فيه:

«ورد على الحزب نبأ برقي اضطربت منه العقول، وانفطرت من هوله القلوب، وتفتت الأكباد، نبأ ينعي المرحوم محمد بك فريد رئيسه الكبير وزعيمه العظيم، إثر داء أعجز نطس الأطباء، وافاه القدر المحتوم في برلين، حيث انتقل لإجراء عملية لاستئصال ذلك الداء الذي لم يشفق على هذه البلاد المنكودة الحظ، فعجَّل بحرمانها من جهاده، وهي في أشد الحاجة إليه في هذا الوقت العصيب، فالحزب الوطني يتقدم إلى الأمة الكريمة، والأسى ملء القلوب، والحزن يخمد الأنفاس، ناعيًا أكبر أبنائها نفسًا، وأعظمهم إخلاصًا وأكثرهم برًّا ببلاده، فلقد ضحى رحمه الله وأغدق عليه رضوانه كل عزيز لديه، من مال وبنين، وصحة وعافية، واحتمل في سبيل خدمة وطنه ما لا يتحمله مجاهد قبله، والله نسأل أن يعوض الأمة بفقده خيرًا، وينزل عليها وعلى آله ورجال حزبه الصبر الجميل. هذا وستقام ليالي المأتم الثلاث بمنزل عائلة الفقيد الكريم بشبرا بشارع رفعت خلف المدرسة التوفيقية ابتداء من اليوم، وسيعلن الحزب الوطني عن الزمان والمكان اللذين تقام فيهما حفلة التأبين لإيفاء الراحل الكريم حقه من الرثاء».

سكرتير الحزب
محمد زكي علي

من الوفد إلى أسرة الزعيم

ونعاه الوفد المصري في خطاب أرسلته لجنة الوفد المركزية إلى أسرة الزعيم، قالت فيه:

«القاهرة في ١٨ نوفمبر سنة ١٩١٩م

إلى أسرة فقيد الوطن المرحوم محمد بك فريد:

الخطب جلل، والرزء عظيم، وما المصاب مصاب عائلة وحدها؛ وإنما هو مصابنا جميعًا، هو مصاب الأمة بأسرها، هو مصاب الوطن الحزين على فقيده، فالعزاء للمصريين على بكرة أبيهم، ذهب الفقيد ضحية الإخلاص والجهاد، فكان في موته بطلًا، كما كان في حياته، كانت حياته مثالًا عاليًا للمجاهدين الصابرين، وآية جليلة من آيات الإرادة القوية، والعزيمة الصادقة، وقد أبى إلا أن يكون في موته آيات وعظات، فهو بتحمله مشاق النفي، وبدأبه على الجهاد حتى آخر نسمة من نسمات حياته، بعيدًا عن وطنه وأهله وأصدقائه، قد رفع رأس أمته، وأشهد العالم أن المصريين يضحون بكل شيء في سبيل وطنهم وحريتهم واستقلالهم، فإذا كانت الأمة قد فقدته فإنها لم تفقد مبادئه وآيات وطنيته، والدروس السامية التي ألقاها عليها في جميع مواقفه، وبموته تمكن من نفسها مبدأ التضحية في سبيل الدفاع عن الوطن، وفي هذا تخفيف لوقع المصاب على النفوس، ولما كانت كل أمة تعنى بتخليد ذكرى أبطالها، فإن لجنة الوفد ستعمل على القيام بهذا الواجب المقدس. أمطر الله جدث الفقيد رحمته، وألهمنا جميعًا نعمة الصبر».

رئيس لجنة الوفد

محمود سليمان

نقل رفاته إلى مصر

(يونية سنة ١٩١٩م)

كانت فكرة نقل رفات الفقيد إلى مصر تجول في خواطر الكثيرين ويرونها فرضًا على المصريين، واجبًا أداؤه؛ إذ لا يليق بالأمة أن تدع رفات زعيمها البار بها، بعيدًا عن أرض الوطن، بعد أن ضحى بحياته من أجلها، وجاهد بماله وروحه في سبيلها، وقد شهدت الأمة عناية كبرى من الوفد المصري بنقل رفات اثني عشر طالبًا مصريًّا توفوا في حادثة اصطدام القطار الذي كان يقلهم على الحدود الإيطالية النمساوية في (مارس سنة ١٩٢٠م)، وبادر إلى نقل جثثهم إلى مصر على نفقته -وقام بالواجب في هذا الصدد- ولكنه إلى جانب ذلك لم يفكر في نقل رفات الزعيم الشهيد إلى مصر، حتى قيض الله رجلًا من كبار النفوس، قام وحده بهذا الواجب المقدس، ذلك هو المرحوم الحاج خليل عفيفي التاجر بمدينة الزقازيق.

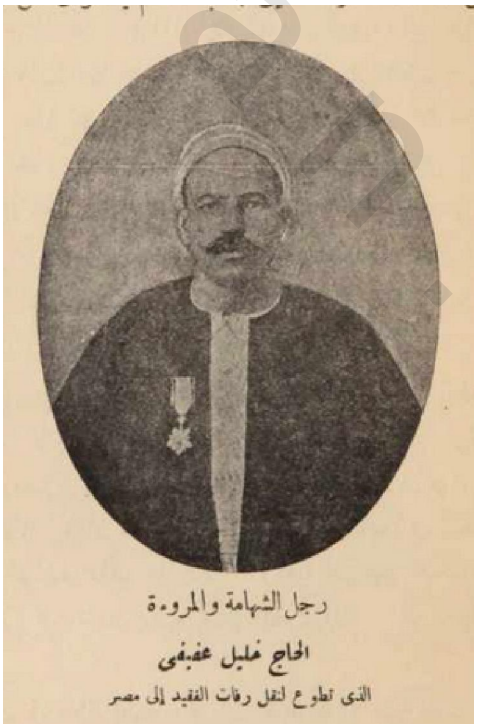

رجل الشهامة والمروءة

الحاج خليل عفيفي

الذى تطوع لنقل رفات الفقيد إلى مصر

وقد يأخذك الدهش من أن يقوم بهذا الواجب عن الأمة بأسرها فرد ليس من الزعماء ولا من الرؤساء والكبراء، وكيف لم يتسابق هؤلاء إلى القيام بهذا العمل، وهو أجدر به من سواهم، ولكن هكذا قدر أن يكون الحاج خليل عفيفي هو الذي يضطلع بهذه المهمة السامية الجليلة، فبرهن على أنه كبير في نفسه، كبير في وطنيته، وقد تطوع إليها من تلقاء نفسه، غير متأثر بإيعاز أحد، أو ملبيًا دعوة أحد؛ بل لبى دعوة ضميره، ورأى أنه لا يليق أن يبقى جثمان الزعيم العظيم بعيدًا عن مصر، فاعتزم أن يسافر إلى ألمانيا ويتولى بنفسه وعلى نفقته الخصة نقل الرفات الطاهر إلى مصر، جزاه الله خير الجزاء، وأسكنه فسيح جناته.

وكانت المهمة تحتاج إلى شيء كثير من الجهد، لما اعترضتها من عقبات ذللها الحاج خليل عفيفي بهمته ووطنيته، فما أن اختمرت لديه الفكرة حتى نهض لتنفيذها، فأخذ ترخيصًا من الحكومة المصرية بنقل الرفات إلى مصر، وأبحر من الإسكندرية (يوم الجمعة ٥ مارس سنة ١٩٢٠م) قاصدًا برلين، عن طريق فرنسا، ولم يكد يصل إلى باريس حتى علم بنشوب ثورة الدكتور (فون كاب) ببرلين، فأقام بباريس حتى استقرت الأحوال في العاصمة الألمانية، ثم سافر إليها فوصلها يوم (٢٨ إبريل).

ثم أخذ يسعى في طلب الترخيص من الحكومة الألمانية بنقل الرفات، وقد اعترضته في بادئ الأمر، عقبة شكلية، وهي صدور قانون في (إبريل سنة ١٩٢٠م) بعدم نقل جثث المتوفين من ألمانيا إلى بلاد أخرى، فسعى لدى الحكومة الألمانية في أن تأذن له بتحقيق أمنيته، وساعده في مسعاه الدكتور عبد العزيز عمران وإسماعيل بك لبيب، وسعيًا لذلك لدى الحكومة الألمانية، وكذلك عاونه محمد أفندي سليمان التاجر المصري المقيم ببرلين، والبارون أوبنهايم.

وحدث في خلال إقامته ببرلين أن الحكومة الفرنسية طلبت إلى ألمانيا الترخيص لها بنقل جثمان ضابط فرنسي مات بها، فأذنت له الحكومة الألمانية بنقله على سبيل

الاستثناء، فارتكن على هذه السابقة وأعاد الرجاء على الحكومة بأن تأذن له بنقل جثمان الفقيد، فنجح في مسعاه، وصدر له الإذن بذلك، ثم قصد إلى حكومة النمسا لتأذن له بمرور الرفات في بلادها، فأذنت بذلك، وحصل بعد جهد من الحكومة الإيطالية على ترخيص بالمرور في بلادها أيضًا؛ لكي يبحر من ثغر تريستا.

وبعد أن تم له الحصول على هذه الرخص، اتفق والمصريون المقيمون ببرلين على الاحتفال بتشييع رفات الزعيم إلى محطة برلين، وقد نقل الرفات يوم الجمعة ٢١ مايو سنة ١٩٢٠م (٣ رمضان سنة ١٣٣٨هـ) إلى المحطة، في جنازة سار فيها جميع المصريين المقيمين بها، ووضع في عربة خاصة بالقطار، فسار به إلى تريستا، حيث أقلته الباخرة (حلوان) التي أبحرت يوم (٣ يونية) قاصدة الإسكندرية، فوصلتها صبيحة يوم (٨ يونية).

وقد أبرق الحاج خليل عفيفي إلى الصحف بنبأ قيام الباخرة فاستعدت الأمة لاستقبال جثمان الزعيم، وتشييع جنازته في الإسكندرية والقاهرة.

وتألفت بالإسكندرية لجنة برعاية الأمير عمر طوسون، ورياسة المرحوم أحمد يحيى باشا؛ للاحتفال بالجنازة عند وصول جثمان الفقيد، وتبرع الأمير عمر طوسون بجميع نفقات الجنازة، وانتخبت هذه اللجنة لجنة تنفيذية تمثل صفوة أعيان الإسكندرية وشبابها، لإعداد معدات الاحتفال ووضع نظامه، مؤلفة من: محمد الناضوري باشا، الأستاذ سعيد بك طليمات، الأستاذ مصطفى بك الخادم، محمد بك عثمان، رمضان بك يوسف، محمد أفندي صادق أبو هيف، عبد العزيز بك الغرياني، المرحوم علي بسيوني بك، عبد الحليم أفندي جميعي، الأستاذ عبد القادر حمزة (باشا)، الأستاذ محمد حسين العرارجي، الأستاذ سليمان حافظ، الأستاذ السيد عبد العزيز خضر، الأستاذ محمد الهيهاوي، الأستاذ عبد الفتاح الطويل، الأستاذ محمد حسني نوري، أحمد نبيه قبودان، الأستاذ حامد المليجي، عبد الله أفندي محمد يوسف،

الأستاذ سليمان أنطون، الأستاذ محمد عوض جبريل، عبد الرازق أفندي الحبشي، أحمد أفندي عبد السلام غالي، حسن أفندي الجزائرلي.

وصول الباخرة

وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين من (صباح يوم الثلاثاء ٨ يونية سنة ١٩٢٠م) ظهرت الباخرة (حلوان) في عرض البحر، ودخلت البوغاز في منتصف الساعة السادسة، يرفرف عليها العلم المصري منكسًا، وعلى ظهرها التابوت المحتوي على رفات الزعيم، وفي الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة رست أمام رصيف الجمرك، فصعد إليها أعضاء لجنة الاحتفال يصحبهم أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطني، وحيوا الرفات خاشعين، وحيوا الحاج خليل عفيفي أحسن تحية، شاكرين له فضله وأريحيته وعمله المبرور.

تشييع الجنازة بالإسكندرية

(٨ يونية سنة ١٩٢٠م)

وفي الساعة العاشرة نقل التابوت من الباخرة إلى زورق بخاري كبير (لنش) يسمى (طير الميناء)، أعدته مصلحة الموانئ والنفارات، ونزل به أعضاء اللجنتين، وسار الزورق إلى رصيف الترسانة، وهناك خف بعض بحارة المصلحة، فنقلوا التابوت وأكاليل الزهر التي عليه إلى الرصيف، وكان رؤساء وموظفو المصلحة يتقدمهم جروجان بك، وكيل النائب عن المدير العام في استقبال النعش.

ووقفت فصيلة من فرقة الكشافة المصرية صفين على الجانبين، فمر النعش، يحمله بحارة المصلحة، وخلفه المستقبلون إلى مسجد سيدي (مجاهد)، بجوار دار المصلحة، ووضع النعش في وسط المسجد، وحواليه الأكاليل، ووقف حرس من الكشافة على أبواب المسجد، حتى يحين موعد سير الجنازة، وانصرفت لجنة الاحتفال تنظم جلوس المشيعين في السرادق، فأعدت أماكن خاصة لكل طائفة

منهم، وأماكن لوفود العاصمة والأقاليم، فجاء من القاهرة وفد من لجنة الوفد المصري المركزية، ولجنة الحزب الديمقراطي، وبعض وفود أخرى، ووفد من الزقازيق برياسة المرحوم الأستاذ أحمد وجد، ووفد من المنصورة مؤلف مني ومن حسين هلال بك، وعلي عبد الرازق بك، ومحمود بك نصير، والأستاذ عبد الوهاب البرعي، وعبد العزيز بك أبو سعدة، والحسيني أفندي العسقلاني، والأستاذ محمود موسى، وإسماعيل أفندي حسين، ووفد من طنطا برياسة الأستاذ مصطفى الشوربجي، ووفد من دمنهور برياسة المرحوم علي بك بسيوني، وقد اشتركت هذه الوفود في تشييع الجنازة بالإسكندرية والقاهرة.

وقبيل الساعة الثالثة مساء أقبل المشيعون جماعات ووحدانًا، فجلسوا في الأماكن المعدة لهم ودعى الأمير عمر طوسون والعلماء والقسس، وأعضاء لجنة الاستقبال، ولجنة الحزب الوطني، ولجنة الوفد، ولجنة الوفود الأخرى إلى دار الفنارات وأعدت لهم الكراسي لجلوسهم.

وفي منتصف الساعة الرابعة تحرك موكب الجنازة، وكان مشهدًا عظيمًا لا يأتي البصر على آخره، وازدحمت الشوارع التي مر بها بالجموع الزاخرة من المودعين والمتفرجين، وسار المشيعون تتقدمهم موسيقى الأمير عمر طوسون، فموسيقى فرقة الكشافة، يتبعها فرقة الكشافة، فطلبة مدارس الإسكندرية، بالترتيب الآتي: مدرسة المعلمين الأولية، المعاهد الدينية، المدارس الأهلية، مدرسة الثغر الحرة، المدارس الأجنبية، المدرسة الكاملية، مدارس العروة الوثقى، مدرسة الأقباط، مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية، مدرسة محرم بك، مدرسة رأس التين، المدرسة العباسية، وفود مدارس مصر والأقاليم. وكان يتخلل طلبة المدارس أعلامها وأكاليل الأزهار، وتبع الطلبة وفود الضباط، فنعش الزعيم فأسرته، فالعلماء والرؤساء الروحانيون، فالأمير عمر طوسون، وأعضاء لجنة الاحتفال، وأعضاء الحزب الوطني، ولجنة الوفد المركزية، والحزب الديمقراطي، فوفود الأقاليم،

فرجال القضاء والمحاماة، والأطباء والمهندسون، والصحفيون، وأساتذة المدارس، فالجاليات الأجنبية، والتجار، وأعضاء الهيئات الماسونية، وأعضاء مجالس إدارة الجمعيات الخيرية، وموظفو المصالح الأميرية، فموظفو المصالح الأهلية، ووكلاء المحامين، ونقابة تجار التجزئة ومستخدمو المحلات التجارية، فالطوائف بالترتيب الآتي: مستخدمو ميناء البصل، القبانية، عمال المكابس العمومية الحرة، النقابة المختلطة لأصحاب عربات الركوب والحوذية، نقابة سائقي السيارات، نقابة المطابع، نقابة الأحذية، عمال حدائق المجلس البلدي، نقابة الصنائع المصرية، نقابات النقاشين والسمكرية، وبائعي الصحف، وعمال شركة المياه، وهندسة السكة الحديدية ووابورات القباري، نقابة الجزارين، عمال تربية الأشجار بالرمل، عمال شركة الغزل، وشركة الغاز، عمال السجاير والدخان، وطوائف أخرى.

وسارت الجنازة من باب الفنارات إلى شارع البحرية، فشارع رأس التين، فشارع وكالة الليمون، فشارع سوق الطباخين، فشارع فرنسا، فميدان محمد علي باشا، فشارع شريف باشا، فشارع رشيد، فشارع نبي الله دانيال، إلى محطة مصر، وانتهى هناك موكب الجنازة، ووضع النعش في عربة خاصة من عربات القطار الذي كان محددًا لسفره منتصف الساعة الحادية عشرة مساء، فوصل العاصمة في صباح اليوم التالي، وسافر من الإسكندرية إلى العاصمة الأمير عمر طوسون، ووفود الأقاليم، وأعضاء لجنة الحزب الوطني، ولجنة الوفد المركزية، ولجنة الحزب الديمقراطي، للاشتراك في تشييع الجنازة بالقاهرة.

تكريم رفات الزعيم في طريقه إلى العاصمة

وكان القطار المقل لرفات الزعيم، كلما مر بمدينة يهرع جماهير الوطنيين ليلًا إلى ردهة المحطة لاستقباله، حاملين الأعلام مجللة بالسواد، هاتفين بذكراه، مترحمين عليه، إلى أن يسير القطار مشيعًا بالقلوب والأبصار.

في دمنهور

فلم تكد تحين الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، حتى احتشد الجمهور في المحطة لاستقباله، ووقفوا في خشوع أمام العربة التي بها الرفات الطاهر، هاتفين بذكرى الفقيد، وكانت المدينة منذ الصباح يبدو عليها الحداد والتأثر العميق، والأعلام المصرية منكسة على محال التجارة، مجللة بالسواد، وقد سافر وفد كبير من أعيانها إلى الإسكندرية للاشتراك في تشييع الجنازة.

في طنطا

ولم يكد الطنطاويون يعلمون بالموعد الذي يمر فيه القطار، حتى استعدوا لاستقباله، وأعدت اللجنة التي نظمت الاحتفال موسيقى كبيرة تعزف بألحان الحزن، وما وافت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، حتى أقبل القطار وقد غصت المحطة بنحو ألفين من الطلبة والموظفين والأعيان والتجار وغيرهم، فبدت على الحاضرين علائم الخشوع والتأثر، وترحموا على الفقيد وهتفوا بذاكراه حتى تحرك القطار، ثم سار الجميع في موكب كبير، والموسيقى تعزف أمامهم بألحان الحداد، حتى بلغوا الجامع الأحمدي، حيث صلوا ركعتين على روح الفقيد.

في بنها

ووصل القطار بنها في نحو الساعة الرابعة صباحًا، وكانت ردهة المحطة غاصة بجماهير المحتشدين الذين جاءوا لتحية الفقيد، فوقفوا في خشوع وتأثر، وألقى الأستاذ مرسي شاكر الطنطاوي هذه الأبيات:

لتحي ذكراك يا فريد ... وليحي تاريخك المجيد
من ذا يباريك في المعاني ... وفي يد صنعها حميد
قد عشت حرًّا ومت حرًّا ... فأنت أنت الفتى السعيد
جاهدتَ صرف الخطوب حتى ... لان لآياتك الجمود

فكـــن عـــلى مـــصر في أمـــان إنـــا عـــلى العهـــد لا نحيـــد

وكان المجتمعون يرددون هذه الأبيات شطرًا شطرًا، فكانت تحية بليغة لروح الزعيم.

تشييع الجنازة في العاصمة

(٩ يونية سنة ١٩٢٠م)

وصل القطار إلى محطة العاصمة في الساعة الخامسة من صبيحة يوم الأربعاء ٩ يونية (٢٢ رمضان سنة ١٣٣٧هـ)، فوضع النعش في مستودع الأمانات بالمحطة، إلى أن يحين موعد تشييع الجنازة.

وأصبحت العاصمة والحركة فيها غير عادية، فقد استعد الجميع لاستقبال رفات الزعيم، وتقاطرت الوفود من الأقاليم، وازدحمت الطرق بالناس، وأقفل أكثر الدواوين والمصالح أبوابها، وعطلت المدارس الأهلية، والمعاهد الدينية، وكثير من المصانع، كل ذلك استعدادًا للاحتفال بتشييع الجنازة، وفي منتصف الساعة الحادية عشرة قدم أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطني إلى المحطة، وأخذوا في تنظيم سير الموكب، وما وافت الساعة الأولى بعد الظهر حتى أخذت الجماهير تتسابق إلى ميدان المحطة لتشترك في الموكب، ووقفت كل طائفة في المكان المعد لها، وكان الناس محتشدين على امتداد شارع كامل -شارع إبراهيم باشا- (الجمهورية) وميدان الأوبرا (إبراهيم باشا) وشارع محمد علي (القلعة)، وغيرها من الشوارع التي اجتازها الموكب، وفي القهوات العامة والمشارب القائمة في تلك الشوارع، وشرف المنازل والأندية والفنادق، وفي كل موضع قدم، متكدسين صفوفًا، متراصين ألوفًا، وأقفلت الدكاكين على امتداد هذه الطرق، ورفعت على الكثير منها شارات الحداد، والأعلام المصرية والأجنبية منكسة مجللة بالسواد، وكانت الشرطة منتشرين يحفظون النظام، ويمنعون الزحام، وفي السعة الثالثة إلا ربعًا مرت كخطف البرق

فرقة من راكبي الدراجات لإفساح الطريق؛ تمهيدًا لسير الموكب، وكانت تحمل أعلامًا سوداء، وتلت هذه الفرقة ثلة أخرى، وكانت فرقة من فرسان الكشافة تنظم صفوف الحاشدين على جانبي كل طريق، وبعد هنيهة عادت تلك الفرقة وسارت في طليعة الموكب، يتلوها صف من فرسان البوليس المصري، فكشافة المدرسة الخيرية الإيرانية بموسيقاها تعزف ألحان الحداد، فكشافة مدرسة وادي النيل الثانوية، فالكشافة المصرية بشبرا، تتقدمها موسيقاها، وحملة الإشارات، فكشافة مدرسة التوفيق، فكشافة المدرسة الإلهامية، ففرقة كشافة المستقبل، فكشافة عابدين الأميرية، فكشافة المدرسة المحمدية الأميرية، وكل منها تعزف موسيقاها، ويلي فرق الكشافة: النقابة العامة لعمال شركة سكة الحديد الكهربائية وعين شمس، فنقابة سائقي السيارات وعمالها فنقابة الحوذية العامة، فالنقابات المختلفة لأصحاب عربات الركوب بالإسكندرية، فنقابة الحلاقين بالقاهرة، فنقابة عمال السجاير، فنقابة عمال الغسيل والكي، تحمل صورة مكبرة للفقيد العظيم، موضوعة في إطار بديع مطرف بالزهر، فنقابة عمال الأحذية، فنقابة الطهاة، فنقابة عمال النسيج وملحقاته، فنقابة الخيامية، فنقابة عمال الصنائع اليدوية ببولاق، فنقابة عمال النور، فنقابة عمال الصناعة بالقاهرة، فنقابة عمال النحاس، فنقابة عمال النور الأبيض، فشركة التعاون المنزلي لعمال طيلون، وجماعة العمال المتحدة بباب الشعرية والخليفة، فجماعة تضامن العمال رافعة صورة الفقيد الكريم، فنقابة عمال وموظفي إنارة السكة الحديدية المصرية، فالملاحون. يلي هذه النقابات والجماعات طلبة المدارس على الترتيب الآتي: طلبة المدرسة الإيرانية الابتدائية يحملون طاقات الزهر، فمدرسة التوفيق القبطية الابتدائية، فمدارس السلطان حسين والسلحدار، فمدرسة رقي المعارف بشبرا، حاملة صورتي فقيدي الوطن المرحومين مصطفى كامل ومحمد فريد، فمدرسة راتب باشا، فمدرسة محمد علي الأميرية، فالجمالية الأميرية، يحمل تلامذتها أكاليل الزهر، فالمدرسة الحسينية، فالنحاسين، فباب الشعرية، فالتحضيرية الكبرى، فمدرسة عابدين الأميرية، فالمحمدية، فالقربية، فالعقادين، فمدرسة

الجيزة، مدرسة مصر الصناعية الأميرية، فكلية مصطفى كامل، فالإعدادية يحمل طلبتها صورتي الفقيدين العظيمين، فالخيرية الإيرانية، فالرشاد، فالاتحاد الوطني، فصدق الوفاء يحمل طلبتها صورتين كبيرتين لكل من الفقيدين الكريمين، فالتوفيق القبطية الثانوية، فباب الحديد الثانوية، فالإلهامية الثانوية، يحمل طلبتها طاقات الزهر، فالمدرسة التوفيقية يحمل طلبتها إكليلًا كبيرًا من الزهر الأبيض، فالمدرسة الخديوية، فالفنون الجميلة يحمل طلبتها صورة الفقيد الكريم، بين علمين مصريين وطاقة من الزهر، فالفنون والزخارف المصرية، فالفنون والصنائع، فالمحاسبة والتجارة المتوسطة، تحمل كل منها إكليلًا بديعًا، فالزراعة المتوسطة بمشتهر، فمدرسة الحقوق يحمل طلبتها الأكاليل، فمدرسة الهندسة يحمل طلبتها صورة الفقيد العظيم وإكليلين من الزهر الأبيض، ويتقدمهم علم مصري مكتوب عليه اسم المدرسة، فمدرسة المعلمين العليا، فالتجارة العليا وخريجوها، فالزراعة العليا، وأمام كل منهما علمها الكبير وعدة طاقات من الزهر، فمدرسة الطب، فطلبة الأزهر، يحملون علمًا مكتوبًا عليه: {ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله}، و«لتحيى ذكرى العاملين». فمدرسة المعلمين الأولية بالقاهرة، فمدرسة معلمي الكتاتيب التابعة لمجلس مديرية الجيزة، فأعضاء المحفل الماسوني يتقدمهم البناء الأعظم، فنقابة المصالح الأهلية، فنقابة الممثلين، فموظفو وزارة المعارف العمومية، فوزارة الحربية يحمل موظفوها علمًا مصريًّا، فمصلحة الصحة تحمل بساط رحمة مكتوبًا عليه: «الاستقلال التام لمصر والسودان». فمحكمة استئناف مصر الأهلية تحمل صورة مكبرة للفقيد العظيم، فوزارة المالية، فالمطبعة الأميرية، فموظفو القسم الميكانيكي لمصلحة السكك الحديدية، فنقابة موظفي تلغرافات الحكومة، ومعهم السعاة بدراجاتهم، فنقابة معلمي المدارس الأولية بمجلس مديرية القليوبية، فنادي موظفي البريد المصري، فنادي منتخب المدارس للآداب والألعاب، يحمل أعضاؤه صورة كبيرة بديعة، فنادي التمثيل الحديث، فالنادي الفني، يحمل كل منهما صورتين للفقيد العظيم،

فجماعة الإصلاح الأدبي تحمل صورة منقوشة على قدة من نسيج، فنادي خريجي مدرسة المحاسبة والتجارة المتوسطة يحمل أعضاؤه صورة كبيرة بديعة بين طاقتين من الزهر على شكل هلالين، فجماعة الإصلاح الخيرية ببيلا غربية، فوفد مديرية الجيزة يحمل علمًا مصريًّا بديعًا، فنادي المعارف، فنادي النجم الأبيض، فوفد مدينة طنطا يحمل كل منها علمًا جميلًا وصورة بديعة، فنادي المتحف الفني يحمل اثنان من أعضائه صورة مكبرة للفقيد وتمثالًا نصفيًا صنعه المثال محمود مختار، وأصلح ما تلف منه الرسام يوسف طاهر، وهرمًا خشبيًّا عليه صورة الفقيد في إطار مذهب مكتوب على أحد جانبيه: «المثل الأعلى للتضحية الوطنية»، فالفرقة الأولى للفتاة المصرية في الإسعاف، ففرقة كشافة الإعدادية فالمدرسة الحربية، فالبوليس، فحملة الأكاليل؛ وهم من الضباط المصريين، فنعش الفقيد العظيم ملفوفًا في العلم المصري، ومحوطًا بفرقة من البوليس وضباط الجيش، وقد تناوب حمله ستون عاملًا، انتدبتهم جمعية تضامن العمال، فالحاج خليل عفيفي، فأسرة الفقيد العظيم ونجله الأستاذ عبد الخالق فريد، فالعلماء والرؤساء الروحانيون، فالأمير عمر طوسون، فأعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطني، ولجنة الوفد المركزية، ووفود الأقاليم؛ وهي: وفد دمنهور، ووفد طنطا، ووفد المنصورة، ووفد الزقازيق، ووفد من بور سعيد برياسة علي بك لهيطة، وكبار المشيعين. وكان من بينهم الأمير إسماعيل داود، وعبد الخالق ثروت باشا، وإسماعيل صدقي باشا، وجعفر والي باشا، وأحمد حشمت باشا، وإسماعيل أباظة باشا إلخ. فالمحامون يتقدمهم النقيب مرقس بك حنا، فالأستاذ شالوم بالنيابة عن نقابة المحامين لدى المحاكم المختلطة، فجماهير المشيعين لا يحصى لهم عدد، فسيارات المشيعات من العقائل والسيدات والآنسات، تسير مثنى مثنى. وفي أولاها أسرة الفقيد. وفي الثانية لجنة تأبينه من السيدات، تليها بقية السيارات، فصف من مشاة البوليس ففصيلة من الفرسان.

واستمر الموكب سائرًا على هذا الترتيب مارًّا بشارع كامل (الجمهورية)، فميدان الأوبرا، فشارع محمد علي، وبعد الصلاة على الفقيد في جامع قيسون، استأنف

الموكب سيره إلى مدفن العائلة بجوار السيدة نفيسة، حيث أنزل جثمانه إلى مرقده الأخير. وتليت على الضريح الطاهر القصيدة العصماء، التي نظمها أمير الشعراء شوقي بك، ثم عاد المشيعون يبكون من أعماق قلوبهم الراحل العظيم.

قصيدة شوقي

التي تليت على ضريح الفقيد

كل حي على المنية غادي ... تتوالى الركاب والموت حادي[1]

ذهب الأولون قَرْنًا فقرنا ... لم يدم حاضرٌ ولم يبق بادي[2]

هل ترى منهمو وتسمع عنهم ... غير باقي مآثر وأيادي

كرة الأرض كم رمت صولجانًا ... وطوت من ملاعب وجياد

والغبار الذي على صفحتيها ... دوران الرحى على الأجساد

كل قبر من جانب القفر يبدو ... علم الحق أو منار المعاد

وزمام الركاب من كل فج ... ومحط الرحال من كل وادي

تطلع الشمس حيث تطلع نضجًا ... وتُنحى كمنجل الحصاد

تلك حمراء في السماء وهذا ... أعوج النصل من مراس الجلاد

ليت شعري تعمدا وأصرا ... أم أعانا جناية الميلاد

كذب الأزهران[3] ما الأمر إلا ... قدر رائح بما شاء غادي

يا حمامًا ترنمت مسعدات ... وبها فاقة إلى الإسعاد

ضاق من ثكلها البكا فتغنت ... رب ثكل سمعته من شاد

الأناة الأناة كل أليف ... سابق الإلف أو ملاقي انفراد

هل رجعتن في الحياة لفهم ... إن فهمَ الأمور نصفُ السداد

---

(١) الحادي: هو الذي يغني للقافلة فتنشط في سيرها.

(٢) الحاضر: ساكن الحضر، والبادي: ساكن البادية.

(٣) الشمس والقمر.

سـقم مـن سـلامة وعـزاء | مـن هنـاء وفرقـة مـن وداد
يجتنـى شـهدها عـلى إبـر النحـ | ـل ويمـشي لوردهـا في القتـاد
وعـلى نـائم وسـهران فيهـا | أجـل لا ينـام بالمرصـاد
لبـد صـاده وأظـن النسـ | ـر مـن سـهمه عـلى ميعـاد
سـاقةَ الـنعش بـالرئيس رويـدًا | موكـب المـوت موضـع الاتئـاد
كـل أعـواد منـبر وسريـر | باطـل غـير هـذه الأعـواد
تـستريح المطـي يومًـا وهـذي | تنقـل العـالمين مـن عهـد عـاد
لا وراء الجيـاد زيـدت جـلالًا | منـذ كانـت ولا عـلى الأجيـاد
أسـألتم حقيبـة المـوت مـاذا | تحتهـا مـن ذخـيرة وعتـاد
إن في طيهـا إمـام صـفوف | وحـواري نيـة وعتـاد
لـو تـركتم لهـا الزمـام لجـاءت | وحـدها بالـشهيد دار الرشـاد
انظروا هل ترون في الجمع (مصرا) | حـاسرًا قـد تجللـت بـسواد
تـاج أحرارهـا غلامًـا وكهـلًا | راعهـا أن تـراه في الأصـفاء
وسِّـدوه الـتراب نـضو سـفار | في سـبيل الحقـوق نـضو سُـهاد
واركـزوه إلى القيامـة رمحًـا | كـان للحـشد والنـدى والطـراد
وأقـروه في الـصفائح عـضبًا | لم يـدن بـالقرار في الأغـماد
نـازح الـدار أَقْـصر اليـوم بـين | وانتهـت محنـة وكفـت عـوادي
وكفـى المـوت مـا تخـاف وترجـو | وشـفى مـن أصـادق وأعـادي
مـن دنـا أو نـأى فـإن المنايـا | غايـة القـرب أو قـصارى البعـاد
سرْ مع العمر حيث شئت تئوبا | وافقـد العمـر لا تـؤب مـن رقـاد
ذلـك الحـق لا الـذي زعمـوه | في قـديم مـن الحـديث معـاد
وجـرى لفظـه عـلى ألـسن النـا | س ومعنـاه في صـدور الـصعاد
يـتحلى بـه القـوي ولكـن | كـتحلي القتـال باسـم الجهـاد
هل تـرى كـالتراب أحسن عـدلًا | وقيامًـا عـلى حقـوق العبـاد

نـزل الأقويـاء فيـه عـلى الـضعـ ـفى وحـل الملـوك بالزهـاد
صـفحات نقيـة كقلـوب الرسـ ـل مغـسولة مـن الأحقـاد
قم إن استطعت من سريرك وانظر سر ذاك اللـواء في الأجنـاد
هـل تـراهم وأنـت مـوف عليهم غـير بنيـان ألفـة واتحـاد
أمـة هيئـت وقـوم لخـير الـدهـ ـر أو شره عـلى اسـتعداد
مـصر تبكـي عليـك في كـل خـدر وتـصوغ الرثـاء في كـل نـاد
لـو تأملتهـا لراعـك منهـا غـرة الـبر في سـواد الحـداد
منتهـى مـا بـه الـبلاد تعـزى رجـل مـات في سـبيل الـبلاد
أمهـات لا تحمـل الثكـل إلا للنجيـب الجـريء في الأولاد
(كفريـد) وأيـن ثـاني فريـد أي ثـان لواحـد الآحـاد؟
الـرئيس الجـواد فـيما علمنـا وبلونـا وابـن الـرئيس الجـواد
أكلـت مالـه الحقـوق وأبـلى جـسمه عائـد مـن الهـم عـادي
لـك في ذلـك الـضنى رقـة الـروـ ـح وخفـق الفـؤاد في العـواد
علـة لم تـصل فراشـك حتـى وطئـت في القلـوب والأكبـاد
صـادفت قرحـة يلائمهـا الـصـ ـبر وتـأبى عليـه غـير الفـساد
وعـد الـدهر أن يكـون ضـمادًا لـك فيهـا فكـان شر ضـماد
وإذا الـروح لم تـنفس عـن الجـسـ ـم (فبقـراط) نـافخ في رمـاد

تخليد ذكرى الفقيد

مستشفى محمد فريد للعمال

قرر الحزب الوطني في (أواخر نوفمبر سنة ١٩١٩م) إنشاء مستشفى للعمال باسم «مستشفى محمد فريد» تخليدًا لذكرى الفقيد، واختار محمد بك أحمد الشريف

(عضو مجلس الشيوخ فيما بعد) أمينًا لصندوق اللجنة التي عهد إليها بجمع الاكتتابات لهذا المشروع.

وقد جمع للمشروع نحو خمسة آلاف جنيه أودعت بنك مصر، واستثمرت اللجنة هذا المبلغ في شراء سندات دين موحد، فتضاعف على مر السنين من أرباحها، ومن ثمن بيعها في وقت ارتفاع أسعارها، حتى بلغ (١٠٤٣٨) جنيه عشرة آلاف وأربعمائة وثمانية وثلاثين جنيهًا في سنة (١٩٣٧م)، ثم رأت اللجنة أن هذا المبلغ لا يكفي لإنشاء المستشفى، فقررت أن تساهم به في تأسيس مستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية بالعجوزة، على أن يخصص قسم منه باسم الفقيد يعالج فيه العمال مجانًا، وتم الاتفاق بين اللجنة والجمعية في (٦ يونية سنة ١٩٣٧م) على أن تتسلم الجمعية هذا المبلغ مقابل تخصيص نصف الدور الأول من المبنى الرابع الواقع فوق العيادة الخارجية، والمواجهة للنيل، لجعله «مستشفى ذكرى المرحوم محمد فريد» وإقامة تمثال نصفي للفقيد في هذا القسم، وتسلمت الجمعية المبلغ في (١٢ يولية سنة ١٩٣٧م)، وصار الجناح المتفق عليه مسمى باسم الفقيد.

obeikan.com